



Erik-Jan Zürcher (eds.)- *Jihad and Islam In World War I: Studies on the Ottoman Jihad on the Centenary of Snouck Hurgronje's "Holy War Made in Germany"* (Leiden: Leiden University Press, 2016), 357p.

يعتبر كتاب الجهاد والإسلام خلال الحرب العالمية الأولى ثمرة بحوث قدمت في سياق إحياء الذكرى المئوية لنشوب الحرب العالمية الأولى، وذلك في إطار ندوة دولية نظمتها جامعة ليدن بهولندا في صيف عام 2014. وقد نشر هذا العمل الجماعي تحت إشراف الباحث إيريك يان تسوركير (Erik-Jan Zürcher) سنة 2016 ضمن منشورات الجامعة نفسها في كتاب من 357 صفحة.

وتأتي هذه الأعمال كصدى لأعمال سابقة قدمت أيضا بمناسبة الذكرى المئوية لرحيل المستشرق الهولندي سنوك هورغرونج (Snouck Hurgronje's)، تحت عنوان: "الحرب العالمية الأولى صناعة ألمانية." ويضم الكتاب بين دفتيه، فضلا عن تقديم ومقدمة 13 مقالة محررة بأقلام باحثين متخصصين في الدراسات حول الإسلام والدراسات العثمانية، ويتتمي معظمهم إلى جامعات هولندية وألمانية وأمريكية. وقد تزامن انعقاد الندوة التي تمخض عنها هذا الكتاب مع ندوات ومناظرات نظمت عبر مختلف الجامعات والقارات الرامية إلى تدارس حدث اندلاع الحرب العالمية الأولى، كما خصصت موائد مستديرة وكتابات للانكباب على دراسة دور الإمبراطورية الجرمانية في نشوب الحرب وتداعياتها.

وقد حرص منظمو الندوة وناشرو الكتاب، موضوع هذا العرض، على أخذ كل المواقف والآراء بعين الاعتبار، سواء الصادرة منها عن باحثين متخصصين أو صحافيين أو فاعلين سياسيين أو أخيرا عن أصحاب الرأي الحر. كما وقع الحرص على انتقاء متدخلين يتمتعون إلى مجالات جغرافية وحقول معرفية متنوعة. وكانت المرآة أكثر على معرفة دور الدين وخاصة الإسلام في بلورة أفكار ومعايير ساهمت في أحداث الحرب العالمية الأولى وتقلباتها. ومن هذا المنطلق، كان عنوان الندوة الأولى كالتالي: "الجهاد واستعمالات الإسلام خلال الحرب العالمية الأولى." وجاء هذا العنوان وكأنه

مرآة ينعكس عليها كتاب سجالي عنوانه: "الجهاد صناعة ألمانية" سبق وأن نشره سنوك هورگرونج منذ سنة 1915.

وقد اهتم الناشر والمشرف على هذا العمل، الأستاذ الباحث إيريك-يان تسوركير، في مقدمة الكتاب بتناول موضوع الجهاد الذي أصبح يشكل حديث الساعة عند عامة الناس والمتخصصين منهم، وخاصة منذ أن أطلق أبو بكر البغدادي على نفسه لقب خليفة المسلمين وأميرا للجهاد المتوج على رأس ما سمي بدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش).

ومن هنا يمكن أن نتساءل هل كان الكتاب يهدف إلى فهم استعمالات الجهاد خلال الحرب العالمية الأولى، أم أن بلوغ هذا المنال سيتحقق عبر الانطلاق بداية من الزمن الراهن وقيام الحركة الجهادية للبغدادي، ل يتم الرجوع بخطوات مرحلية إلى زمن الحرب العالمية الأولى؟

كما يمكننا أن نتساءل حول ما إذا كانت شرعية الجهاد من عدمه تمثل مسألة قد طرحت مع استعمالاته من قبل العثمانيين في السابق وكذا من قبل أبي بكر البغدادي خلال السنوات الأخيرة في كل من أراضي العراق وسوريا؟ وي طرح الباحث الناشر في مقدمته إشكالية النخب التي عملت على إبطال شرعية الجهاد بناء على الشريعة ونصوصها. ويذكرنا هذا الأمر بالنقاش الذي دار بين الشيخ ماء العينين وأخيه سعد بوه الذي قال ببطان الجهاد أمام قوة فرنسية متفوقة وتعتنى في الوقت نفسه بحال الضعفاء ولا تسعى إلى محاربة الإسلام والمسلمين.

حاول الناشر ربط جهاد الدولة العثمانية ببطلانه شرعا من المنطلق القاضي بأن الدولة العثمانية قد أمضت اتفاقا سريا مع ألمانيا قبل بداية الحرب في 2 غشت من سنة 1914. وهذا في الوقت الذي ظلت فيه الدولة العثمانية تدعي الحياد بين الأطراف المتصارعة. لكن هزيمة الألمان في معركة المارن قد دفعت بهم إلى الضغط على الأتراك الذين قاموا بمهاجمة الروس عند واجهة البحر الأسود. ويقول صاحب المقال أن ما تبقى من شرعية الجهاد قد اهتزت أركانه بحكم أن الأتراك ادعوا مواجهة الروس لهم ولبواخرهم وهو الأمر الذي اعتبر كذبا و افتراء. ومن هذا المنطلق، حاول الكاتب الحديث عن العلاقة بين جهاد مزعوم وإمكانية القيام بالجهاد باعتباره فرض عين أو فرض كفاية. ثم كيف لشيخ الإسلام أن يضمني طابع الشرعية على الجهاد ويدعي بأن

أرض الإسلام ومعه الأمة الإسلامية قد أصبحت عرضة للتهديد من قبل قوات الروس وحلفائهم الفرنسيين والبريطانيين والصرّب؟ وقد حاول الأساتذة المشاركون في هذا الكتاب الجماعي أن يبينوا كيف أن ردود فعل النخب في المناطق الهامشية للأمبراطورية العثمانية لم تساند فكرة الجهاد كما هو حال منطقتي عسير والحجاز ممثلة بشريف مكة. وقد انطلق الباحثون من الأسباب والدواعي التي دفعت المستشرق الهولندي سنوك هورغرونج لإصدار كتابه السجالي "الجهاد صناعة ألمانية" والمنشور سنة 1915 كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد خصص المقال الثاني لمعالجة هذه المسألة بالتحديد من قبل ليون بوسكنس (Léon Buskens) الذي تناول مسألة مهاجمة سنوك هورغرونج لزملائه الألمان والذين كان لهم موقف مغاير من جهاد الدولة العثمانية، بل ذكر بأن موقفهم لا يعدو أن يكون أكثر من التعبير عن موقف وطني وشوفيني. غير أن رد الألمان كان قد انبنى على أساس كونهم أولاً ألمان قبل أن يكونوا باحثين أكاديميين (29-30). كما حاول مصطفى أكسكال (Mustapha Akeskal) أن يتناول مسألة اتخاذ الأتراك لقرار الجهاد باعتباره موقفاً يعكس السياسة الألمانية التي رأت في فكرة الجهاد سلاحاً فعالاً للتأثير على المجتمعات المسلمة الواقعة تحت سيطرة القوى المعادية للألمان وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا. وقد أعلن عن المناذاة بالجهاد بعد استصدار فتاوى عن 32 عالماً من هيئة العلماء التي يباركها السلطان وذلك يوم 14 نونبر 1914 وذلك أمام حشود جماهيرية تجمعت بحماس أمام مسجد محمد الفاتح (56-57). ويخلص الباحث أكسكال إلى القول بأن الجهاد مرتبط بالدين كما يرتبط بمصلحة مشتركة تجمع الدولة العثمانية وحليفها ألمانيا.

وإذا كان كثير من الدارسين قد سعوا إلى اقتفاء آثار الجذور التاريخية للمشروع الجهادي في السياسة العثمانية، فإن الباحث تيلمان لودكي (Tilman Lüdke) قد حاول دراسة فكرة الجهاد في ضوء التوظيف السياسي للإسلام من قبل ألمانيا خلال الحربين، ومن ثم فقد سعى جاهداً إلى البحث عن أسباب فشل المشروع الألماني خلال مدة تاريخية تتجاوز سنتي 1914-1918، (71-90).

أما المقالة الثالثة لصاحبها محمت بيسكسي (Mehmet Beşikçi) فقد تناول من خلالها مسألة تعميم استعمال الدين خلال الحرب، فذكر أنه لا يعدو أن يكون حكراً على الدولة العثمانية ولا على حلف دون آخر، بل ذهب إلى القول بأن كل الأطراف المتصارعة قد استخدمت عنصر الدين باعتباره إيديولوجية وسلاحاً لتبرير مواقفها وأهدافها (95).

105-). وقد اعتمد في تحليلاته على دراسة فليب يانكينس، الموسومة بـ "الحرب الكبرى والمقدسة" (Philip Jenkins, *The Great and the Holy War*) وعلى نتائج أعمال أخرى وخاصة منها كتابات كلارك كريستوفر المشورة (Clark Christopher) لتبرير مقولته ودعمها. وقد تناول هذا الأخير موضوع دخول الكنيسة الأورتودوكسية على الخط في روسيا وجميع الكنائس في كل من بريطانيا وفرنسا، باستثناء البابوية والبابا بنوا الثاني عشر (Benoit XII) الذي لم يكن يرتبط بأي كيان ترابي-وطني. كما ركز الباحث على النموذج الألماني من خلال تياراته الكاثوليكية والبروتستانتية ودورها في تأهيل المجتمع والدولة وإعدادهما للدخول في مغامرة الحرب. وهو ما يبين كيف أن الإسلام لم يمثل الديانة الوحيدة التي استعملت نخبها وأفكارها بطريقة أو بأخرى خلال الحرب العالمية الأولى. وهذا فضلا عن أن عدم توسيع رقعة البحث ليشمل مناطق جغرافية أبعد قد فوت على الناشر والباحثين إمكانية متابعة أصداء جهاد الأتراك ومساندة الحجاج المغاربة أو نخب المجتمعات الصحراوية لجهاد الترك كما هو الحال مع محمد بن المختار الكنتي الذي شارك في الجهاد ضد الروس بل وقد أصيب برصاصة في رجله. غير أن كتاب: الطوائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، الذي يذكر الحدث وإن كان سابقا عن الحرب العالمية، قد أكد بأن الأمر لا يعدو أن يكون كرامة من كرامات الشيخ القادري الكنتي. وأن نية الجهاد بالصحراء أقوى من القيام به حقيقة في الأصقاع الروسية. فهل تصح مقولة سنوك هورغرونج "جهاد الترك صناعة ألمانية" مع نموذج الإنسان بالغرب الإسلامي الذي لا علم له بالاتفاق السري المنعقد بين الترك والألمان ولا بمسابقة الأتراك إلى مهاجمة الروس؟ إنها إحدى الزوايا التي يمكن أن ننطلق منها لمناقشة إشكالية الكتاب بشكل عام.

ومن جهة أخرى، يبدو واضحا كيف أن بقية المقالات التي تناولت الموضوع لم تنفتح على المجتمعات المغاربية التي عرفت حملة واسعة وصلت إلى أصقاع المناطق الصحراوية. وهذا فضلا عن أن الأرشيف الفرنسي الذي ظل يراقب فكري الخليفة والجهاد ويحاربها انطلاقا من اسطنبول لا نجد لها أي أثر يستحق الذكر في هذه الدراسة. بل إن مخططا قد تم وضعه لمساندة السلطان المغربي ومحاصرة كل الدعاة الذين توجهوا برا أو بحرا في اتجاه شمال إفريقيا وغربها كما تبين ذلك ربائد الأرشيف الفرنسي المحفوظ بإيكس-أن بروفنس أو الأعمال المنشورة في هذا الصدد للباحثين بول مارتي (Paul Marty) ولوي أرنو (Louis Arnaud).

وتضمن الكتاب دراسة لمسألة الجهاد في جنوب العراق حيث الأغلبية الشيعية أو شماله حيث الأغلبية الكردية، وكيفية تفاعل العراقيين مع السياسة العثمانية التي نجحت في إثارة مشاكل حقيقية للبريطانيين في المنطقة (انظر مساهمة سو كرو هانيو گلو Şükrü Hanioğlu: 117-118). ويمكن اعتبار هذا المقال فاصلا بين رأيين؛ حيث يدافع أولهما على اعتبار فكرة الجهاد من صنعة الألمان، في حين يذهب الرأي الثاني إلى القول بأنها فكرة تدخل في إطار السياسة العثمانية. وقد بذلت في مقالة هانيو گلو محاولة سعى صاحبها إلى التوفيق بين هذين الموقفين. لقد اعتمد العثمانيون الجهاد فعليا في سياساتهم السابقة على الحرب العالمية الأولى، كما عمل الألمان في الوقت ذاته على استعمال الجهاد كورقة رابحة لحث شعوب آسيا المسلمة وخاصة في روسيا والهند على الثورة في محاولة لهدم أركان القوات الروسية والبريطانية.

وتضمن الكتاب عددا مهما من المقالات التي تناولت مواضيع تتعلق بالوسائل المستعملة لنشر فكرة الجهاد وبالفتاات المستهدفة وخاصة العلماء ممثلين في شخص شيخ الإسلام ومنصبه باعتباره أعلى هيئة ينتظم في إطارها علماء الإمبراطورية العثمانية. كما تمت أيضا دراسة الفتاوى والصحافة باعتبارها من أهم الوسائل المستعملة في نشر الفكر الجهادي سواء في تركيا أو ألمانيا وكذلك في المستعمرات الخاضعة للاحتلال الفرنسي والبريطاني. وعلى هذا الأساس تم اعتماد اللاجئ المسلمين الذين غادروا بلدانهم الأصلية. كما طالت الدعاية فضاءات المساجد وتستررت بمشاريع بنائها أو ترميمها كما هو حال سوريا أو مسجد وونسدورف (Wünsdorf) في جنوب برلين الذي تناوله مارتن غوسون (Martin Gussone) في مقالته الموثقة والمعززة بصور للمسجد ومعاله الهندسية (179-180). وقد سلك الباحث هانس تايينسن (Hans Teunissen) المنحى نفسه حيث اعتمد على عنصري الترميم والهندسة كوعاء لنشر الفكر الجهادي وتسويقه (223-225). كما تم تناول موضوع الإنتاج الأدبي الذي واكب المشروع الجهادي ونقل أفكاره في مقالة إيرول كورو گلو (Erol Köroğlu).

وقد وقع الحرص في هذا الكتاب الجماعي على محاولة الإمام بكل القضايا ذات الصلة المباشرة بإشكاليته المركزية، حيث تناولت الباحثة نيكول فيكن أوس (Nicole Van Os) موضوع مشاركة المرأة في الحرب عبر مجالات جغرافية متعددة وبناء على وثائق وصور مهمة.

وفي الأخير اهتم الكتاب بمعالجة مسألة فشل المشروع الألماني الذي اعتمد على اللعب بورقة الجهاد لمواجهة الحلفاء، خاصة وأن الأهالي ممن شاركوا في صفوف الجيوش الألمانية لم يتفاعلوا إيجاباً مع النداءات الموجهة إليهم واستمروا في الدفاع عن البلدان التي حاربوا من أجلها. وقد ركزت مقالتي أحمد الراوي وجوشوا تايتيلبوم (Joshua Teitelbaum) على التمهيد في دراسة دور العرب في إفشال المشروع العثماني-الألماني والكشف عن مظاهر تعاونهم مع المشروع البريطاني-الفرنسي وخاصة في بلاد الشام والحجاز. كما ركزت مقالة عمر رضا على البحث في موضوع دور العرب الشيعة بأراضي جنوب لبنان في التفاعل مع المشروع الجهادي من خلال دراسة نموذج أحمد رضا الذي انتهى به المقام في مصر إلى اعتبار الحرب العالمية الأولى مسألة حرب داخلية تم أوروباً وميزان القوى بين أممها. كما أكد أحمد رضا بأن الدول الأوروبية لم تعمل إلا على إنتاج أسباب الحرب المدمرة والتي لا تعني بتاتا اهتمامات المسلمين والإسلام.

فهل يمكن الخلوص إلى القول بأن مضامين الكتاب تثبت أن المشروع الجهادي الذي سعى إلى توحيد الأمة الإسلامية وتوجيهها نحو خدمة مشروع سياسي عثماني-ألماني قد انتهى به الأمر إلى إيقاظ مشروع أمة عربية وجدت في المساندة الفرنسية والبريطانية سبيلاً إلى التخلص والانعقاد من الهيمنة العثمانية التي استمرت زمناً طويلاً؟ كما يمكن التساؤل حول مدى نجاعة هذا المؤلف الجماعي في تسليط الضوء على مناطق الظل التي يمكن أن تخفي بداية التنافس السني-الشيوعي في توظيف سلاح الجهاد واستعماله، خاصة وأن الكتاب تناول حالة جنوب لبنان والعراق؟

الجيلالي العدناني

جامعة محمد الخامس بالرباط